العروبة في قلب الاغتراب

المشـــترك والمضيء في ثقـــافـــتنا العـــربيـــة

. ناصـــــر الـربـاط ❖ .

مازلنا لا نَعْرفها تمامًا

جيلُ الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين جيلٌ ترعرع على فكرة العروبة. سمعناها مع أناشيدِ طفولتنا. وأحسسنا باندفاعات أهالينا الذين حلموا بها وانتشوْا بصعودها إلى قمة الاهتمامات السياسية في الدول العربية التي نالت استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية. وردّدنا التغنّي بها من خلال مختارات الشعر الذي أُجبرنا على حفظه عن ظهر قلب، ومن دون أن نَفْهم منه شيئًا في سنيّ دراستنا. وهَتَفْنا بحياتها في مظاهرات ومسيرات أُجبرنا أحيانًا على السير فيها لدعم قضايا، أو لدعم زعماء فَرَضوا أنفسَهم علينا فرضًا ولم نخترْهم أو ننتخبْهم. وقرأنا عنها ضمن مقرَّرات شهاداتنا المدرسية والجامعية، أو ـ بالنسبة إلى القلة منّا التي اكتسبتْ وعيًا سياسيًا مبكرًا ـ في صفوف الأحزاب والتنظيمات التي انتمينا إليها وكافحنا من خلالها. واقتنعنا بالعروبة، أو على الأقل لم نفتِّشْ عن بدائلَ لها لتأطير هويّاتنا طوال فترات دراستنا. وآمن الكثيرُ منّا بها نبراسًا لحياته الفكرية والسياسية والاجتماعية. بل ضحّى بعضُنا بزهوة شبابه، وأحيانًا بحياته، في سبيلها.

ولكنّنا اليوم، وبعد سلسلة هزائم ماحقة ابتدأتْ بهزيمة حزيران ١٩٦٧ وأَوْصلتْنا إلى احتلال العراق عام ٢٠٠٣، مازلنا لا نَعْرف بعدُ ما هي العروبة على وجه التحديد. أو مازلنا على الأقل لا نَعْرف ما الذي عناه أهلُنا وأساتذتُنا وزعماؤنا عندما قدّموها لنا كالإكسير الشافي من كلّ المشاكل والمصائب. وغالبيتُنا قررت التخلّي عن الاعتقاد بها والالتفاتِ إلى ما هو أنفعُ وأبقى في ظلّ العولمة واقتصاد السوق الحرة، خاصةً في هذه الأيام حيث تبدو العروبةُ من مخلَّفات عصرٍ مضى يريد له الساسةُ الكبارُ في العالم أن يختفي من غير كثيرِ ضجيجٍ أو ضوضاء.

القلة القليلة منّا مازالت تَذْكر العروبةَ أحيانًا. تذكرها بأسًى وأسف أحيانًا، وأحيانًا بمرارة وحرقة: مرارةِ الهزيمة، وحرقةِ فقدانِ ما اعتدناه من دون أن نَفْهمه. والقلةُ الأقلّ هي تلك التي تحاول فهمَ العروبة من منظورٍ معاصر، براغماتيٍّ أحيانًا، ولكنّه منظورٌ نقديٌّ يريد أن يغوص في تاريخ الفكرة لكي يقرِّر إنْ كانت لها جذورٌ تبرِّر وجودَها، أو فروعٌ مازالت قابلةً للعطاء والاستمرار. وأحبّ أن أظنّ أنّي واحد من هؤلاء. وأودّ أن تشاركوني بعضًا من هذه التساؤلات التي أثارتْها فيّ متابعةُ أخبار العالم العربي يوميًا من المغترَبِ الأميركي في عزّ الغزو المأساوي الذي عاشه ومازال يعيشه أهلُنا في العراق وفلسطين بشكل خاصّ والاستلاب السياسي الذي تعانيه الشعوبُ العربيةُ كلّها من دون استثناءٍ يُذْكر بشكلٍ عام؛ فالاغتراب يَفْتح العينَ على وجهات نظر مختلفة، ويَدْفع الذهنَ إلى مراجعة القناعات لأنّها تبدو مختلفةً عندما يكون المرءُ بعيدًا عن موطن نشأته.

تاريخٌ مشترك؟

العروبة اسمُ مَصْدر يُفْترض أنّه يدلّ على أمة واحدة، هي الأمة العربية. ولكنّنا اليوم نرى ثلاثًا وعشرين دولة تنتمي إلى ما يُعرف بـ «جامعة الدول العربية» وتختلف في توجُّهاتها وسياساتها وأنظمة حكمها وأهدافها. وهي، إلى ذلك، مازالت تسمِّي نفسَها دولاً عربية، وإنْ كانت تضيف اسمَ بلدها بعد صفة «العربية» أو أحيانًا قبلها. وهي كذلك مازالت تَنْعت الدولَ العربيةَ الأخرى بـ «الشقيقة،» حتى عندما تهاجمها إعلاميًا، وأحيانًا عسكريًا. ولكنْ يبدو أنّ بعض هذه الدول نفسها اختارت إطاراتٍ تنظيميةً أخرى لهويّتها، كـ «منظمة المؤتمر الإسلامي» و«مجلس التعاون الخليجي،» ومؤخّرًا المنتدى الاقتصادي الشامل لدول الشرق الأوسط التي تدور في الفلك الأميركي، وأَسْقطتْ جامعة

❖ ـ أستاذ الأغا خان للعمارة الإسلامية في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T.).

الدول العربيةِ إلاّ قليلاً وأَسقطتْ معها العروبةَ كمسار سياسي وأساس تنظيم قومي. بل إنّ بعض الدول العربية قد قَبِلَ بصيغة «الشرق الأوسط» اسمًا لإطار هويّته، مع ما تَحْمله تلك الصيغةُ من أبعاد سياسية مأزقية، أهمُّها: حشرُ إسرائيل في المنطقة كمكوِّن أصيل ومنتمٍ إليها، ونسيانُ أصولها الغربية وعمليةٍ زرعها الكولونيالية التي مازالت في حاجة إلى الكثير من مضادّات الأجسام الفتّاكة لكي يتقبّلها المحيطُ العربيُّ غصبًا واضطرارًا.

العروبة أيضًا، حسب رأي محاميها، ذاتُ تاريخ قديم ومستمرّ بدأ قبل الإسلام بكثير عندما نزحتْ قبائلُ من جزيرة العرب شمالاً باحثةً عن القوت بعد سنواتٍ جفاف عجاف أو انهيار سدودٍ عظام، وانخرطتْ في الحياة السهلية والمدنية في بلاد الرافدَيْن والهلال الخصيب، ثم اشتدّ عودُها وتمكّنتْ بمجيء الإسلام من جزيرة العرب نفسها ومن تأسيس الدولة الإسلامية الأولى بأيدٍ عربيةٍ وتوجُّهاتٍ عربيةٍ ومطامحَ عربيةٍ. ولكنّنا مهما فتَّشْنا فلن نجد لهذا التاريخ العربي المشترك وجودًا سياسيًا واضحًا. هناك فعلاً وجودٌ لدول عربية هنا وهناك، على مرّ القرون الخمسة عشر الماضية، مثل دولة الرسول والخلفاء الراشدين في جزيرة العرب، ودولة الحمدانيين في حلب، وبني الأحمر في غرناطة، ودولة الشريف حسين القصيرة العمر في بداية القرن العشرين. ولكنّ ما يُعرف اليوم بـ «العالم العربي» لم يتوحّد كلُّه إلاّ لفترة قصيرة بين نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي في القرن الثامن الميلادي. وحتى في تلك الفترة، كان العالمُ الذي يُعْرف اليوم بـ «العربي» جزءًا من دولة الخلافة الإسلامية التي ضَمّت أممًا وشعوبًا أخرى لم تعرِّفْ نفسَها أبدًا على أنّها عربية وإنْ ذاب بعضُها لاحقًا في خضمّ طغيان الهوية العربية.

خصائص مشتركة؟

وقد يقول قائل: إذا كان الواقعُ والتاريخُ السياسي لا يقدِّمان البرهانَ القاطعَ على صيرورة العروبة، فإنّ هناك الخصائصَ الثقافيةَ المشتركة والمميّزة للشعوب التي تنتمي إلى العروبة. ولكنْ دعونا نسأل: ما هي هذه الخصائص؟

هل الدينُ المشترك واحدٌ من هذه الخصائص؟

قطعًا لا. فالإسلام دينُ غالبية العرب، ولكنّه ليس دينَهم كلِّهم. وإذا وافقنا أنّ العروبة والإسلام مسمَّيان لهوية واحدة، كما يدّعي البعضُ في هذه الأيام، فإنّه سيتوجّب علينا أن نضمّ الفرسَ والأتراكَ والهنودَ والأندونيسيين ـ وغيرهم الكثير ـ إلى العروبة. وهذا مرفوضٌ من قِبل هؤلاء، وهم الذين يعرِّفون أنفسَهم بهوياتهم الوطنية، وغيرُ واقعيّ بطبيعة الأمر. وكذلك، وهذا أنكى، إذا وافقْنا على الهوية العربية ـ الإسلامية التي يجري التركيزُ عليها هذه الأيام، فإنّه سيتوجّب علينا إسقاطُ المسيحيين واليهود واليزيديين والصابئة وغيرِهم من الانتماء إلى العروبة، وهم الذين لم يَعْرفوا لأنفسهم حتى العصر الحالي غيرَ الهوية العربية ـ وهذا إجحافٌ بحقّهم التاريخي وحقِّ العروبة في آن واحد. ولا أظنّ أنّ العودة إلى المعزوفة القديمة التي رأت في الإسلام مآلَ العروبة، كما نَظَّر ميشيل عفلق وغيرُه من البعثيين أو القوميين العرب، يُفيدنا في شيء؛ فلا هذه النظرية تجاوزت الدينَ في تعريف الهوية الوطنية (وهذا في رأيي مطلبٌ أساسي في عصر دولة المساواة أمام القانون)، ولا هي نجحتْ في تحييد الفروق الدينية التي استمرت في النخر في بنية الدولة التي التزمتْها لسنين طويلة.

حسنًا، إذا لم يكن الدينُ المشتركُ من الخصائص الأساسية للعروبة، فهل التراثُ المشترك إحدى هذه الخصائص؟

الجواب هنا متردّد؛ فليس هو بنعم واضحة ولا بلا صريحة. هناك قطعًا تراثٌ عربيٌّ مشترك، بعضُه تاريخي وبعضُه موضوع. ولكنّه أيضًا تراثٌ مشترك مع العديد من الأمم التي لا علاقة لها بالعروبة. فتراثُ الدول

اللغة العربية هي الوشيجة الأولى التي تصل بين كلِّ العرب، وربّما الوحيدة التي تحتوي كلّ ما تمثّله العروبة

العربية المعاصرة يتقاطع ويتداخل مع تراث دول أخرى إسلامية في غالبها، مثل إيران وتركيا وإسبانيا ووسط آسيا ودول الصحراء الأفريقية خلال الفترة الإسلامية كلّها وحتى بداية القرن العشرين. بل إنّ هذا التداخل قد استمرّ حتى بعد احتلال الاستعمار الأوروبي لغالبية أراضي السلطنات الإسلامية في العصر الحديث، وبعد نشوء الدول الحديثة بحدودها الجديدة وأعلامها الجديدة وأناشيدها الوطنية الجديدة وجوازات سفرها الجديدة.

فإذا ما نظرنا إلى ما قبل الإسلام فما الذي سنجده؟ سنجد أنّ بعض البلاد العربية تتشارك مع معظم دول حوض البحر الأبيض المتوسط في التراث الكلاسيكي. فقد عاشت بلادُ الشام ومصرُ وشمالُ أفريقيا ألفَ سنة (بين حوالى ٣٣٠ قبل الميلاد و٦٤٠ بعد الميلاد عمومًا) كجزء من عالم متوسطي كلاسيكي: هيلينستي بدءًا، وروماني لاحقًا، ومسيحي بيزنطي في النهاية. وقد تفاعلت المنطقةُ مع تراثها ذاك: فأَخذتْ منه وأَعْطته، وتماهت معه، وساهمتْ في العديد من منجزاته الثقافية والأدبية والعلمية والفنية والمعمارية. بل ربما كان لأبناء المنطقة الباعُ الأطول في دفع عجلة الحضارة التي اصطلحتْ أوروبا على تسميتها بـ «الحضارة الكلاسيكية» والتي اعتبرتْها مهدَ حضارتِها هي نفسِها من دون غيرها على الرغم من الدلائل التاريخية والجغرافية المغايرة. فماذا نستنتج من ذلك؟ هل العروبة كما نَعْرفها اليوم، وبحكم موطن نشأتها ونموّها، سليلةُ الكلاسيكية؟ أم أنّ بعض العرب الذين لم يشاركوا في الحضارة الكلاسيكية أكثرُ عروبةً من غيرهم الذين انتموا إليها في وقت ما؟

بالطبع لا. بالإضافة إلى ذلك، ما الذي يُمْكننا أن نستشفه من دراسة تراث البلاد العربية الأخرى التي لم تتشارك مع حوض المتوسط في تراثه الكلاسيكي؟ هل نصنِّف العراقَ وفق انتمائه إلى التراث الرافدي ـ الفارسي مثلاً؟ وهل نَرْبط اليمنَ بالحبشة، أو عُمانَ بالهند، أو السودانَ بقلب القارة الأفريقية، كما تتطلّب معطياتُ الجغرافيا والتاريخ؟ لا توجد إجاباتٌ وافيةٌ عن هذه التساؤلات، ولكنّه من الواضح أنّ قضية التراث المشترك تثير من المشاكل أكثرَ مما تحلّ.

لغة مشتركة؟

لنترك إذن هذا السؤالَ العويصَ جانبًا ولننتقلْ إلى اللغة العربية، التي يمكن اعتبارُها بحقٍّ الخاصيةَ الأساسيةَ المشتركةَ بين العرب، ووعاءَ هويّتهم الحضارية وتاريخهم المشترك بشقّيْه المثبت والمأمول. فعلى الرغم من تباين وتعدُّد لهجات أبناء الدول العربية، فإنّهم مازالوا يكتبون ويقرأون ويفكّرون بلغة واحدة. هذه اللغة، التي تسمّى اليومَ اللغةَ الكلاسيكيةَ، والتي حُفظتْ بفضل القرآن الكريم، هي الوشيجةُ الأولى التي تَصِلُ بين كلّ العرب. بل ربما كانت الوشيجةَ الوحيدةَ التي تحتوي ـ ضمن أصواتها ومعانيها ودلالاتها وذكرياتها وتاريخها وشعرها ونثرها ـ كلَّ ما تمثِّله العروبةُ، وكلَّ ما جمعتْه لنفسها عبر تاريخ طويلٍ وصعبٍ ومليء بالأحداث العظام، وكلَّ ما يُمْكنها أن تَحْمله معها في رحلتها نحو المستقبل بغضّ النظر عن قدرها.

من اللغة العربية تَنْبع العروبةُ، وهي بها موجودةٌ وحقيقيةٌ وليست فقط تاريخًا وأحلامًا. إنّها تحيا في مكانٍ ما متوسِّطٍ بين عقول وقلوب الملايين من الناس الذين يتكلّمون ويفكّرون ويغنّون ويَحْلمون ويتمتمون ويدرسون ويصلّون بالعربية في البلاد العربية وفي المهجر. ولكنّها تحتلّ مراتبَ متعددةً، وأحيانًا متخالفة، في مخيّلة وذاكرة أبنائها وفي تفاعلهم معها. فهم يُحِسّون بها من خلال تأثيرها على الكيفية التي يَنْظرون بها إلى العالم ويتفاعلون بها مع أحداثه. وهم يجدون أثرَها في مشاعرهم ومخاوفهم وآمالهم وآرائهم. وهم يَرَوْنها في تعبيرات وجوههم، وفي حركات أيديهم. وهم يَسْمعونها في نطقهم للحروف المميّزة لها والخارجة من أعماق حلوقهم، كالطاء والظاء والعين والغين والقاف ـ ولاسيّما

الضـــاد، حــرفُـــهم الفـــريدُ الذي لا تشاركهم فيه لغةٌ أخرى. وهم يَشْعرون بها في انسياب خطّهم، وفي تعبيريةِ وإيقـاع شِـعْـرهم، وفي مـوسـيـقـاهم التقليدية المستعادة والمتأوِّهة والممدودة ـ بانتظارها وصبرها وأملِها وتغنِّيها بالحبيب. وهم يتذوَّقونها في أكلاتهم الحـرّيفة والدسـمـة، في حـمَّـصِـهم وفلافلهم، في تبُّولتهم وبابا غنّوجهم، في كبّتـهم وطاجنِهم، في ملوخـيّـتـهم وخبيزتهم، في كَبْستـهم وكُسْكسهم، وفي تمنهم ومسقوفهم، ويَشْربونها مع قـهوتهم السوداء القوية والمحـمّصـة والمطعّمة بحبّ الهال. وهم في النهاية يتذكّرونها أكثرَ عندما يفتقدونها، خصوصًا في الأوقات العصيبة أو على البعد في المهجر.

اتّساخ «العروبة»

في ظروف كهذه، تصبح الذكرياتُ هي البـؤرةَ التي تَنْجـمع فـيـهـا كلُّ تلك التعبيرات الصغيرة والعادية عن الهوية وعن أبعـادها الثـقـافـيـة، كـالأغـانـي والرقـصـــات والقــصـص والملاحم والصـور القـديمة والأزياء والأكـلات الشعبية وما شـابهها، ربما لتعوِّض الناسَ عن فقدان الوطن الحقيقي، أو لتَشْحن قدرتَهم على مواجهة التحدي والمحـافظة على الإحـسـاس بالذات. ولكنّ الناس أنفسهم، في تلك الظروف الحرجة، يستسلمون أحيانًا لليأس، أو لذاكرةٍ ملفَّقةٍ أو مـبـتـسرةٍ صنَعَـها مـرتزقون تاريخيون من ضمن منظور عقائدي في غالب الأحوال، ويَحْصرون تاريخَـهم في شـرنقـة هذه الذاكـرة الخانقة، ويَرْفضون كلّ قراءةٍ مخالفةٍ أو مكمِّلةٍ لها. وهذا في رأيي هو مـا حَـصَل عندمـا مُنِيت الدولُ العـربيـة بالهزائم المتتالية في النصف الثاني من القـرن العـشـرين. فـفي الأجـواء السياسية والعقائدية المحمومة التي عـاشـهـا الوطنُ العربي إجـمالاً في تاريخـه الحـديث، طغت الدعـواتُ المتشنّجة إلى اتّخـاذ مـواقف حـدّية وشـوفـينيـة، وإلى الشكّ في الآخـر ورفضه قبل الدخول في حوار معه. ونَمَتْ في هذا الجو عنجـهيـةٌ قـوميـةٌ تداري جراحَ خيبتها بصـهر الفروق الإثنية والقـوميـة في البلد الواحـد، وأحيانًا بإلغاء حامليها والمدافعين عنها بدعـوى الانتمـاء إلى الأمـة الواحـدة. واتّسـختْ سـمـعـةُ العروبة لتـصـبح مرفوضـةً من بعض أبنائها، ومـخذولةً من بعض منظِّريها السابقين.

نقاط مضيئة

ومع ذلك، فهناك نقاط مضيئة في العالم العـربي وفي الشـتـات العربي تزدهر فيهما إمكانيةُ عروبةٍ منفتحةٍ ومتحرِّرةٍ وعالميةٍ، وإنْ كانت مـا زالت في حـاجة إلى الكثـير من الرعـاية والاهتـمـام والإخلاص الفكري والثقافي. ولعلّ أهم هذه البؤر الثقافية والسياسية فلسطين المحتلة والجاليات العربية في الغرب. فكلا الطرفين في بداية نضـاله لتعريف هـويّتـه الثـقـافـيـة خـارج الإطار الجيوسياسي للعالم العربي وأدواته القـمـعيـة. وكلاهما يقف في مـواجهـة تحدِّيات هائلة من نوع آخر.

فـالمشـهد الثـقـافي العربي في أوروبا والولايات المتحدة اليوم غنيٌّ باتجاهاته الديناميكية التي تحـاول الاسـتـجـابةَ لضغوط الهجرة والتمييز العنصري من جهة، والانتماء والحنين من جهة أخرى. وتَبْرز هذه الخواصُّ في أعمال الكثير من الفنانين والكتّاب والمفكّرين العرب، المهاجرين والمقيمين والمنتجين في أوروبا والولايات المتحدة. وكذلك تَبرز همومُ الوطن الأم وهمومُ التحرّر في الصحف والمجلات العربية التي تُنْشر في الغرب، وفي القنوات الفـضـائيـة التي تُبثّ بالعـربيـة، وفي الكتب التي تُطْبع بالعربية، وفي الأفلام السينمائية عن العـالم العـربي التي تُنْتَجُ من قِـبل سينمائيين عرب، وفي أصوات المغنّين العـرب التي تَصْـدح على مـسـارح وإذاعـات بلاد الهـجـرة. يرافقُ هذا الزخمَ الثقافيَّ العربيَّ في بلاد المهجر، حيث تتوافر حريةٌ نسبيـةٌ، حضورٌ سـيـاسـيٌ وتنظيـميٌ لمذاهبَ دينيـة وحـركـاتٍ صـوفـيـةٍ وكنائسَ شـرقيـةٍ وحركـاتٍ فكريةٍ وسـياسـيـةٍ نابعـةٍ من العالم العربي ومضطهَدةٍ فيه ولكنّها

فلسطين والشتات العربي نقطتان مضيئتان تَزْدهر فيهما إمكانية عروبة منفتحة ومتحرّرة وعالمية

مهمومةً بهمومه. وكذلك الحال بالنسبة إلى دعاة حقوق الإنسان العرب، والسياسيين المبعَدين، والناشطين الدينيين والعلمانيين، والعسكريين المطرودين والمغامرين العرب، الذين سمحتْ لهم الأوضاعُ بالتعبير عن أنفسهم في أوروبا والولايات المتحدة، سلبًا وإيجابًا. كلّ هذه الإرهاصات زاخرة باحتمالات التغيير التي لم تجد لنفسها متنفَّسًا في مَنْبتها فهاجرتْ بحثًا عن النور والهواء، وأحيانًا الرزق، ولكنّها في غالبيتها مازالت مسكونةً بآلامِ وآمالِ الوطن الأم.

أما شعب فلسطين المحتلة فهو من خلال نضاله المستمر، الذي يتأجّج انتفاضاتٍ تراجيديةً متوالية، يسعى لأن ينتزع في آن واحدٍ حريّتَه في تقرير مصيره الوطني على أرضه، وحريتَه في رسم حداثته الخاصة به، على الرغم من وعورة الطريق إلى كلا الهدفَيْن، وعلى الرغم من المعارضة الخارجية والداخلية العنيفة التي تتشابه في بعض معطياتها ومثيلاتها في العالم العربي ككلّ. غير أنّ معاناة الاحتلال العسكري الإسرائيلي الغاشم من جهة، ومعاناةَ الاحتكاك الدائم بثقافة المستوطن اليهودي الغربي الحداثية من جهة أخرى، قد عَجَمَتا عودَ الشعب الفلسطيني ــ في الداخل ولكنْ في الشتات بوجه خاص ـ وشَحَذتا وعيَه، الأمرُ الذي أكْسب بعضًا من أفراده شجاعةَ المستميت في التعبير والاعتقاد والدفاع عن هويّتهم. هذه الأصوات، برسوخ قناعاتها بحقّها في أرضها وبانتمائها إلى هذه الأرض على الرغم من كل الضغوط الغاشمة من سلطات الاحتلال ومن سلطات الأعراف القَرْوَسطية، تَمْنحنا جميعًا، نحن الذين أُنسينا أو تناسينا، بصيصَ أمل في استمرار التواصل والتفاعل بين واقعنا وطموحنا، بين ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، بين خصوصيّتنا وإنسانيّتنا، بين تراثنا وانتمائه الإنساني العالمي واللامحدود قبل كل شيء.

نحو هوية عربية معاصرة

هذه هي، في رأيي، المهمة الأولى التي تواجه المثقفين والسياسيين والمواطنين العرب الحداثيين اليوم في الوطن والمغترب في آن، في محاولتهم صياغةَ هويةٍ عربيةٍ معاصرةٍ ومتحرّرةٍ وواعيةٍ وعلمانيةٍ منفتحة. يجب على هؤلاء العروبيين تجاوزُ الحاضر الشوفيني والمنغلق على ذاته، والتركيزُ على البعد الثقافي الحقّ ـ أي البعد المتعدّد الثقافات المنفعل والمتفاعل مع الآخر الذي خَبِرَه تاريخُنا في أغلبه وفي لحظاته المضيئة كلِّها.

لقد أضْحتْ هذه المهمةُ أكثرَ حرجًا وأهميةً بعد هجمات الحادي عشر من أيلول على واشنطن ونيويورك، تلك الهجمات التي يبدو أنّها عَمّقتْ من التضادّ المستشري ما بين الشرق العربي بوجه خاصّ، والمسلم بشكل عامّ، من جهة، والغرب التكنولوجي ومدعّي العلمانية سياسيًا وحقوقيًا، والذي ما زال ثقافيًا مسيحيًا ـ يهوديًا في دخيلته، من جهة ثانية. ولا أعتقد أنّ مقارعة الاستعمار الأميركي الجديد الذي أَفْرزته هجماتُ الحادي عشر من أيلول، أو الإسرائيلي القابع على صدر العالم العربي منذ ١٩٤٨، تَكُون باقتباس أدواته العنصرية أو التمييزية. بل إنّ الطريق الأمثلَ يكون في تدفُّق الحوار الثقافي والسياسي والاجتماعي في العالم العربي وخارجه، هذا الحوار الذي تَرَاجَعَ الدورُ العربيُّ في المساهمة فيه وإذكائه تراجعًا كبيرًا في العقود الأربعة الأخيرة، بحيث أصبحت الثقافةُ العربية هامشيةً فعلاً، لا على الصعيد العالمي ـ وهذا هاجس كبير ولكنّه مفهومٌ تاريخيًا بسبب سطوة الفكر الغربي ـ ولكنْ أيضًا على الصعد الإسلامية والآسيوية ـ الأفريقية والعالمثالثية، أي الدوائر الثقافية الثلاث التي تَنْتمي إليها الثقافةُ العربية والتي يُمْكنها نظريًا أن تكون في مراكز العقْد منها بفضل انتشار اللغة العربية وتغلغلها في ثقافات شعوب مختلفة ونتيجةً لتشابه الماضي القريب والآمال والمآل.

ومع ما يبدو اليوم كأنّه سيادةٌ للمدرسة الفكرية النيو - محافظة والمؤدلجة في خضمّ انتصاراتها الآنية ومن خلال تموقعها الحالي في قلب صناعة القرار في الولايات المتحدة نفسها من جهة (خاصةً مع التركيبة الثانية للرئيس جورج دبليو بوش) وفي العديد من مواقع الحكم العربية وغياهب الأحياء المكتظة والمهيضة في العالمين العربي والإسلامي أو في تخوم جبالهما الوعرة من جهة أخرى، فإنّ الفكرة العامة التي تمثّلها عبارةُ صموئيل هنتغتون المسرحية «صراع الحضارات» أوهى بكثيرٍ فكريًا وتاريخيًا ممّا تدّعي. فالتاريخ، وعاءُ التجارب الإنسانية الواسع والدائم، لا يحبّ التضادات الحدّية الثابتة بين الشعوب والأقوام والثقافات والحضارات، بل هو يقوّضها على أوهامها كلما شمختْ راسخةً متباهيةً، ويفتُّ من اكتمال هيأتها كلّما استمرأتْ ثباتَها وديمومتَها لكي يفتّق حدودَها ويجعل التشابهَ والتكاملَ والاندياحَ المتبادلَ بين الثقافات المختلفة - متحابةً كانت أو متباغضةً - معيارَ حركته وعلامةَ تدفُّقه وعنوانَ واقعه. فالثقافات تتعارف وتتقاطع وتتبادل التأثيرَ باستمرار. ولعلّ هذه هي حقيقة التاريخ الأولية والدائمة التي لا تَطْغى عليها أيُّ حقيقة أخرى. ولا يوجد أصلاً تضادٌ كاملٌ بين الحضارات أو الثقافات في التاريخ، اللهم إلاّ تلك التي لم تتعارفْ وتتقاطعْ بسبب بعد المسافة واستحالةِ المواصلات، وبالتالي لا يُمْكنها أن تكون متضادةً تعريفًا وواقعًا. أما تلك الحضارات التي تعارفتْ وتعايشتْ وتحاربتْ وتصالحتْ وتقاطعتْ وتبادلت المعرفةَ والسلعَ والناسَ والأفكارَ، فهي - بحكم تقاطعها في الزمان والمكان والعقائد - لم تتمكّن من المحافظة على وَهْم تضادِّها إلاّ في اللحظات العويصة عندما كانت هويتُها وكينونتُها مهدَّدتيْن بالذوبان والاختفاء. وحتى في تلك اللحظات القصيرة لم يكن التضادُّ الحدّيّ أكثرَ من وهمٍ سطحي استعمله المؤجِّجون العقائديون - من ساسة ومنظِّرين وعسكريين في كلا الطرفين - للمحافظة على امتيازاتهم أو لكونهم قد ابتدأوا يصدِّقون رسالةَ «النقاء» العرقي والحضاري أو الديني التي لفّقوها أساسًا لأنّها أسهلُ على التصديق، أو لأنّهم اقتفَوْا خطى مفكّرين سياسيين أكثرَ منهم فاشيةً وانغلاقًا وَعَدوا شعوبَهم بالنصر والسيطرة، وفي غالب الأحوال لم يَجْلبوا لها سوى الدمار والخراب وسوء السمعة. وما حملاتُ الإعلام المكتوب والمرئي والمسموع المحمومة والعنصرية اليوم، أو الحروب والنزاعات والتحالفات الدولية والعمليات العسكرية أو «التخريبية الإرهابية» والتفجيرات والاغتيالات والغارات الجوية والاعتقالات التي أصبحتْ على ما يَبْدو ديدنَ العلاقة ما بين الغرب والعرب، إلاّ الافرازاتُ العلميةُ الناتجةُ من قبول التضادات القومية أو العرقية أو الدينية الحدية كحقائقَ تاريخيةٍ وكواقعٍ معيشٍ وحتمي - وما هي بذلك.

بوسطن